AICHA BOUCHAREB

قصة رحلة
البحث عن الله

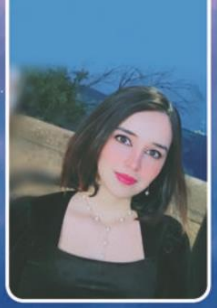

عائشة بوشارب
كاتبة قاصة وروائية

هل هناك خالق للكون؟

وإن كان هناك خالق له فما غايته من خلقه لنا، وتضييع وقته في جعلنا نخوض اختبار الحياة؟ ألم يكن بمقدوره أن يجعلنا طائعين له كما يريد..

ماذا لو ولدنا بدين آخر.. هل كنا لننال فرصة العودة إلى الطريق الصحيح أم أننا كنا لنعيش في ضياع ونلتزم بما آمن به آباؤنا؟!

عائشة بوشارب

عائشة بوشارب

رحلة البحث عن الله

عاد إسحاق من المدرسة ليجد جده عيسى يستمع إلى المذياع كعادته.

على الرغم من تطور التكنولوجيا فإنه لم يستغن عن هذه الآلة القديمة التي تجلب له البهجة، ولطالما عرف بحسن عشرته ومحبته الطويلة للأشياء التي يتعلق بها قلبه، أما إسحاق فلم يكن يوافقه الذوق ذاته، إذ كان يرى أن الأشياء القديمة لم تعد لها فائدة ما دامت هناك نسخ متطورة منها..

رمى حقيبته المدرسية وألقى جسده أرضاً إلى جانب جده مستنداً إلى كتفه، ومد يده مساعداً إياه في اختراعه الذي سماه بـ "الاختراع العظيم" الذي لم يشارك فكرته أحد آخر سوى حفيده الذي عوضه حنانه فقدان ابنه الوحيد.

كان الشتاء من هذا العام بارداً بشكل قاس على غير العادة، ولم يكن إسحاق صاحب العشرين عاماً يمانع مثل هذه الظواهر الطبيعية لأنها ساعدته في الكثير من المرات على استخراج أسئلة عميقة من عقله، لكنها كانت ترهقه أيضاً، لأنها لم تعطه أجوبة كافية لإشباع ذكائه، من بين تلك الأسئلة **"هل وجدت أرواحنا أولاً أم أجسادنا؟"، "لماذا أشعر بنفسي في رائحة التراب المبلل؟"، "هل السماء تبكي؟."**

منذ كنت صغيراً عودني والدي على الاستلقاء فوق الحشيش المبلل بقطرات الندى ولطالما راودتني فكرة أن السماء تشعر مثلنا، عندما تكون حزينة تمطر بكاء أو العكس، لا بد من أن هناك تواصلاً بينها وبين الأرض، إن أحست السماء بالرضا عن الأرض تسقيها بقطرات تروي نباتها الظامئ لتزهر من جديد وإن غضبت أرسلت ثلوجا جمدت جذورها .

أذكر آخر مرة بكت فيها السماء وشعرت بحزنها

"أراهن على أنك لن تجد جواباً لهذا السؤال يا سموكي"، كان إسحاق مستلقياً على سريره حينما خطر في باله هذا السؤال ووجهه إلى سمكته الذهبية التي لطالما اعتبرها صديقاً بشرياً أكثر من كونها كائناً مائياً.

هل هناك خالق للكون؟ وإن كان هناك خالق له فما غايته من خلقه لنا وتضييع وقته في جعلنا نخوض اختبار الحياة؟ ألم يكن بمقدوره أن يجعلنا طائعين له كما يريد؟

تنهد إسحاق ووضع يده فوق حوض سموكي الزجاجي وقال بابتسامة دافئة:

- أعلم أعلم.. قلت أنه سؤال واحد فقط، لكن صدقني ليس بيدي حيلة فسؤال واحد يولد برأسي آلاف الأسئلة المعقدة وبعضها يكون أكثر تعقيدا منه.

ارتمى فوق سريره باستسلام وراح يفكر بهدوء في الكثير من الأشياء أو بالأحرى في تساؤلات كثيرة خرجت في كل مرة قرر فيها السماح لعقله بالتفكير، كانت لإسحاق عادة سيئة فإن فكر في سؤال عميق ولم يجد له إجابة شعر فورها بصداع يرهقه، جلس فجأة باعتدال فور أن أتته تلك الفكرة الغريبة، وراح يقلب عينيه يمنة ويسرة محاولاً الخروج بسؤال، فقد تعلم شيئاً مهماً في حياته وهو أنه لن يجد إجابات إذا لم تكن هناك أسئلة تشرح أفكاره وقف على مهله ومشى ببطء نحو سمكته الودودة ثم سألها:

- هل لك دين يا سموكي؟؟ أأنت مسلم أم مسيحي أم هندوسي..

صمت قليلاً وأضاف مشيراً بإصبعه نحوه بنبرة حادة:

- أم أنك ملحد؟

أما سموكي الشقي فقد كان يحرك زعنفته يمنة ويسرة دون أن يفهم شيئاً أو ربما قد يكون فهم السؤال وتعمد تجاهله، سحب إسحاق كرسيه الخشبي ووضعه بالقرب من وعاء صديقه وراح يقول بصوت هامس يدل على الغموض:

- بما أننا ولدنا مسلمين فنحن ملتزمون بديننا لكن ماذا لو ولدنا بدين آخر؟؟ هل كنا لننال فرصة العودة إلى الطريق الصحيح أم أننا كنا لنعيش في ضياع ونلتزم بما آمن به آباؤنا؟!

صمت قليلاً مفكراً في إجابة لتساؤلاته بينما أخذ رأسه يحكه، فقد كانت هذه إحدى عاداته، كلما واتاه سؤال عميق حكه شعر رأسه.. وقف ثانية من على كرسيه وراح يدور ذهاباً وإياباً مفكراً في استنتاج لما تفوه به، وفجأة توقف عن الحركة وقال بحماس:

- أتعلم يا سموكي! استنتاجي أن للقناعة دوراً كبيراً في ذلك، وأن للمنطق دوراً في ذلك أيضا.. فلا توجد قناعة دون منطق أليس كذلك! والمنطق يصاحبه العلم وبما نقتنع نؤمن..

هدأت أفكاره قليلاً بينما راح يهز رأسه مكملاً نظريته:

- الدين الذي يعطي حرية الاختيار هو الذي يجب اعتناقه لكن يجب علينا التذكر دوماً أنه لا يوجد اختيار نقدم عليه دون عواقب، لذا يجب علينا أن نختار بشكل صحيح خصوصاً إن كان ما نختاره متعلقاً بمصير حياتنا.

دق الباب دقتين فتلاشت أفكاره وعرف فوراً من الطارق وما غايته من طرق الباب، فخرج مسرعاً إلى المطبخ ليجد الطعام جاهزا وجدّه بانتظاره كعادته على الطاولة، كان عيسى العائلة المتبقية لإسحاق بعد فقده والديه إثر حادث سيارة مروع، ولطالما شعر الجد بالشيء ذاته.

"لولا النسيان لما كانت لدينا القدرة على الاستمرار بالعيش"

كانت هذه الكلمات من بين الأشياء العميقة التي قالها جده وتركت في نفسه أثراً كبيراً.. كيف يمكن لعقولنا أن تنسى الأشياء الجميلة التي عشناها بينما تتذكر الحوادث السيئة التي تركت في أرواحنا فجوات فارغة لاشعورية تقودنا إلى الضياع؟

قال لي جدي ذات مرة إنه لو لم يمت والدي وأنا في الخامسة من العمر لتأكد من أن روحه هي التي في جسدي بسبب الأشياء المشتركة بيننا التي من غير المعقول أن تكون كلها صدفة، كحبي الشديد للسفر إلى النجوم ولمسها، لكن قوله هذا جعل سؤالاً جديداً يطل من عقلي، هل الأرواح خالدة؟ وهل خلال خلودها تنتقل من جسد إلى آخر؟ هل يمكنها السفر عبر الزمن؟ بصراحة لم أجد أجوبة كافية سوى الجواب الذي أخبرني به رأسي وهو أن الأجساد تتجدد مع كل ولادة والأرواح تبحث عن الجسد المناسب لها وحينما تجده تنتقل بذلك إلى مرحلة متقدمة من اللعبة لكن أين؟ لا أعلم!

أيقظه الصوت المرتجف طالباً منه تمرير الخبز الذي كان بجانبه فأحس بأن هناك خطباً ما بجده فسأله قائلاً:

- هل هناك ما يزعجك يا جدي؟

تنهد بمرارة وأجابه:

- لا تشغل عقلك يا بني، فقط لا يزال العنصر الأخير من الاختراع مفقوداً وعقلي مشوش قليلاً بسببه، فالطبقة

الحامية لمقصورة القيادة يجب أن تكون قوية وفي الوقت نفسه خفيفة الوزن.

كان الاختراع الذي أرهق جدي حلم والدي منذ الصغر، فلطالما كان على قناعة بأن هناك وسيلة غير مكلفة للسفر إلى الفضاء ولم أتخيل يوماً أن يتمادى جدي بمخيلته ويصنع صاروخاً بتقنيات غير مكلفة ثم يخفيه سراً خلف منزلنا الواقع في أطراف قريتنا الوادعة، لكن هل حين يأخذ الموت من نحبهم يصبح تحقيق أحلامهم غاية.

- لا تستسلم يا جدي يمكنك النجاح، يمكنك اختراع أي شيء يا جدي حتى الحلول، وأنا مستعد للمساعدة بأي شكل من الأشكال.

ابتسم الجد بملامحه البشوشة معبرا عن امتنانه لحفيده، فبادله إسحاق الابتسامة وقال مسترجعاً ذكريات حلوة:

- أتعلم يا جدي.. على الرغم من أني كنت صغيراً حينذاك لكني أذكر جيداً رحلتي مع والدي إلى الجبل حيث كان يربط خصري بالشجرة الكبيرة عند التل ويطلب مني دفع جسدي نحو الشجرة للتخلص من الطاقة السلبية، وكان يفعل المثل، وحين ينال منا التعب نستلقي فوق العشب المندى بأقدامنا الحافية.

صمت قليلا بينما ترقرقت الدموع في عينيه بعدما تذكر والده ثم تنهد بحرج مضيفا:

- لطالما أخبرني أن الجبل هو السبيل الوحيد للصعود إلى الفضاء وبصراحة لم أفهم قوله المعتاد ذاك.. فقد تعودت على كلامه العميق.

شهق الجد بعدما سمع ما قاله حفيده ووقف شعر رأسه دهشة ثم أمره بإعادة ما قاله، ففعل إسحاق دون أن يدري ما الذي يحدث مع جده، اكتست ملامح الجد بالجدية، وشرد فكره بعيداً وفجأة وقف على قدميه المرتجفتين وقال بحماس:

- وجدته! لقد وجدت العنصر الأخير بفضلك يا إسحاق!!

لم يفهم إسحاق شيئاً مما قاله جده وسرعان ما اختلطت عليه الأفكار "أيعقل أن يكون جدي قد أصيب بالخرف؟ لا لا غير معقول فلا يوجد في تاريخ عائلتنا من أصيب بالخرف".. هز رأسه بقوة طاردا وساوسه محاولاً أن يفهم ما أصابه لكن دون جدوى، فقد غادر الجد مسرعاً دون أن يشبع فضول حفيده.

بعدما أطعم سْموكي استلقى إسحاق على سريره دون حراك وطارت به أفكاره إلى تخيل سقف من زجاج مكشوف يتيح له رؤية السماء ومصاحبة النجوم ومصادقة القمر والكواكب فلم يكن في قاموس عقله كلمة مستحيل، وكل محال يخترع له منطقا يجعله ممكناً، كانت الأرض بالنسبة له دون جاذبية عكس

الفضاء، ولطالما أخبرته أحاسيسه أن هناك حياة بعيدة طويلة الأمد تُعاش بالقرب من الزهرة وأخوتها الكواكب دون ضجيج المصانع والزلازل.. سرقته أفكاره إلى مكان بعيد نسي فيه العالم ونفسه، وراح يفكر في الخلق والخالق وتمادت به أفكاره للسؤال عمن خلق الخالق ومتى كانت بدايته؟ فحدثه صوت من داخله بعد دقائق عرف عن طريقه أن الله خالق كل شيء حتى البداية والنهاية، فلا بداية ولا نهاية لجلالته.. وأخذته غفوة جميلة إلى أحلام قادتها مشاعره دون استئذان من عقله المهيمن.

استيقظت الشمس ونشرت أشعتها الذهبية بشكل عشوائي على جميع الأماكن الباردة لتدفئها من وحشة البرد وتمنيت لو أن أشعتها تتمكن من تدفئة قلوب الناس الجامدة، تمكن النوم مني ونسيت أمر جدي الذي غادر وتركني غارقاً في حيرتي، قمت من فراشي بصعوبة كزومبي عائد إلى الحياة وعندما فتحت عيناي لأستبين أين تطأ قدماي أخرجت الشمس أشعتها اللاذعة معلنة الحرب على عينيّ.

خرجت من غرفتي واتجهت إلى المرآب دون حتى إلقاء تحية الصباح على صديقي سموكي ولا أندم على ذلك فالضوضاء التي هناك هي ما جذبني إليها، دلفت إليه فوجدت جدي المسكين منحنياً يعمل بجهد غير مكترث لشرر النار المتطاير الذي كاد يعمي بصره فحب الانطلاق كان أقوى من حرصه على سلامته كانت خلفية المرأب تمتلئ بآلات يكسوها الغبار اخترعها جدي منذ زمن لبيعها لكن بعدما أخذ الموت منه والدي بات كل همه تحقيق

حلمه، وكانت من حوله بعض الأدوات المبعثرة حيث كان الصاروخ الذي أطلق عليه جدي "الوصول 19" يقع منتصف الغرفة، موضوعاً بإحكام فوق مصطبة عريضة من رخام صلب ولوح سميك دي عجلات حديدية اخترعه جدي، أتذكر أنه قال لي حينذاك إنها ستساعد عند اكتمال الاختراع ولحسن الحظ أن السقف مرتفع عن المنزل وإلا اضطررنا لجعله يبيت خارج المنزل، وقد سماه بذاك الاسم تيمنا بالوصول إلى الدرجات العليا من الكمال أما الرقم فيعنيه تاريخ مولد الاختراع.

توقف عن العمل برهة عندما رآني واقترب نحوي مسرعا ودون أي مبررات حملني فرحا كطفل الصغير، فأخذت اضحك على نفسي عندما وجد صعوبة في رفعي وانتابني القلق خوفا عليه من الأم الظهر، كنت سعيدا جدا حينذاك فالسعادة المنبعثة من عينيه أسعدت روحي وطمأنتها.

- يا له من صباح يا جدي.. على الرغم من عدم تحضيرك وجبة الإفطار فإنه صباح مشرق اشتقت إلى الاستيقاظ فيه منذ زمن.

ابتسم الجد قائلاً:

- بفضل تجاوزنا للأيام المظلمة عوضنا الله بصباح مشرق، فأحيانا نحتاج إلى جرعة صغيرة من الأمل للتشبث بالإيمان ولأن الله يحبنا لم يبخل علينا يوما بما طلبناه.

أخذ إسحاق يهز رأسه بالموافقة مستوعبا كلمات جده بابتسامة هادئة بينما يتوجه برفق نحو الصاروخ ثم عقد ذراعيه عند صدره وأمال رأسه قائلا:

-أخبرني يا جدي، ما سر هذا التفاؤل.. والأهم من ذلك ما الذي دفعك للمغادرة البارحة باستعجال دون تبرير؟

خفض الجد عينيه نحو الأرض وقال بنبرة حانية:

- أعتذر يا بني عما حدث البارحة لم يكن قصدي أن أقلقك.. وأنا متأكد من أن ما سأقوله لك سينسيك ما حدث..

لم يفهم إسحاق مقصده وراح يترقب ما سينطق به جده. رفع الجد رأسه مجدداً نحو إسحاق وأومضت عيناه ببريق فرح، أكمل قائلا:

- بفضل الحكاية التي رويتها لي عن الجبل تمكنت من إيجاد العنصر الأخير للاختراع. قبل عشرين سنة وقعت حادثة نادرة اعتدنا سماعها في نشرات الأخبار فقط، لم نتوقع يوما أن تحدث أمام أعيننا.. انتشرت الإشاعات حول كويكب صغير سيصطدم بالكرة الأرضية في غضون ثلاثة أيام ويقضي على البشرية كلها، وحذر منه علماء الفلك وحتى المشعوذون، إلا أنني ووالدك لم نعط الأمر أهمية فقد اعتدنا على مثل هذه الإشاعات.. إلى أن

جاء ذاك اليوم الذي تحول فيه الأمر إلى حقيقة.. حيث اصطدم نيزك بالجبل الذي حدثك عنه والدك ولحسن الحظ كان صغير الحجم نتيجة احتكاكه بغلاف الأرض.. شعرنا بالأرض تدور بنا بينما كانت تهتز بسبب الاصطدام القوي وبعدها توجهنا نحو الدخان المنبعث الذي قادنا إلى الجهة الغربية من الجبل، ذهلنا من المشهد، فلم نتوقع يوما أن تحدث صخرة صغيرة الحجم حفرة عميقة كندبة كبيرة شوهت تضاريس الجبل..

كان إسحاق ينصت لحوار جده بإمعان وذهول، وقد بدا من تعبير وجهه أنه لم يفهم الصلة التي تجمع بين النيزك والاختراع فأضاف الجد قائلا:

- أستطيع التكهن من تعبيراتك أنك لم تفهم الحكاية بعد.. النيزك يا بني يحتوي على معدن نادر الوجود وهو ما كنت بحاجة إليه لإنهاء اختراعي ولم يعلم بخصوصه أحد سوى والدك رحمة الله على روحه.

ذهل إسحاق مما سمع وفرح لذلك كثيرا فصاح بحماس قائلاً:

- الآن بت أفهم مقولته تلك عن أن الجبل هو السبيل للصعود إلى الفضاء!

هز الجد رأسه مبتسماً وترقرقت عيناه بدموع تحمل في طياتها الكثير من الكلمات ثم قال بصوت مبحوح:

- الطيران إلى الفضاء كان حلمه الأول والوحيد منذ كان في سنك.

اقترب نحو حفيده بهدوء ثم ربت على كتفه بحنو وأكمل قائلا:

- واختراعي هذا أمامك صممته لك.. حتى يتحقق حلم ولدي عن طريقك.
- ما الذي تقوله يا جدي! لقد ظننت أنك تريد اعتلائه بنفسك.. هل أنت متأكد؟!
- طبعا متأكد يا إسحاق ماذا ظننت؟ هل اعتقدت أني سأطير إلى الفضاء في هذا السن؟

اندفع إسحاق بجسده نحو جده وعانقه بكل ما أوتي من قوة وراح يشكر ربه سراً على تعويضه فقدان والده بجد حنون، مرت لحظات أحس فيها بتباطؤ الزمن وكانت الشمس والسماء شاهدتين على حبهما النقي.

في وقت لاحق من ذلك اليوم، جلس إسحاق وجده إلى طاولة الطعام وأخذا يتناولان أطراف الحديث بصحبة الشوربة الساخنة، وكان سموكي يستمتع بحديثهما داخل حوضه اللطيف ويحرك ذيله يمنة ويسرة بحماس، وفي لحظة صمت سأل إسحاق قائلا:

- ماذا تبقى للانطلاق يا جدي؟

- لم يتبق الكثير سوى تدريبك على استخدام لوحة التحكم والسباحة في الجاذبية.

ابتسم إسحاق بعد أن تخيل نفسه يسبح في الفضاء لكن سرعان ما تلاشت ابتسامته بعدما سمع من جده أن التدريب يلزمه ثلاثة أعوام مما جعله يصاب بالإحباط فهو غير صبور كجده.

مرت ستة أشهر طويلة على إسحاق وكأنها ست سنوات تعلم خلالها ضبط نفسه والتحكم بتوازنه كما تعرف جيداً على الصاروخ وأصبح صديقا له إلا أن جده لم يجد هذا كافيا فلطالما حرص جيداً على الاعتناء بحفيده قرة عينه، لكن إسحاق أحس أن الوقت لم يكن في صالحه يوما ومنذ جاء إلى الدنيا شعر أنه والوقت عدوان ولطالما كانت معركته معه خاسرة.

ذات صباح اهتزت الأرض بعيسى فاستيقظ من نومه متفائلاً بيوم جديد وخطوة متقدمة نحو تحقيق هدفه بكل ثقة، نهض من فراشه ووقف بصعوبة مرتدياً نظارته المستديرة كعادته وتوجه إلى غرفة إسحاق المحب للنوم ليطمئن إلى حاله فلطالما أصيب حفيده بنوبات هلع من الزلازل، وكانت المفاجأة أنه وجد غرفته فارغة وبالقرب من وسادته ورقة مطوية وأيقن أن في الأمر ما يدعو للغرابة فاقترب يتأملها ودلت على رسالة وداع كُتب عليها الآتي:

- "جدي الحبيب لن أنسى مطلقا تدريباتك ونصائحك التي خفرت بصوتك في وجداني أرجو منك ألا تحزن عندما تعرف إنني غادرت".

جلس عيسى على طرف السرير عند قراءته الرسالة فقد تملكه الخوف في تلك اللحظة وأخذ يبكي بينما اختلطت عليه مشاعره لم يبلغ منتصف فحوى الرسالة فانهار، خلع نظارته ثم جفف دموعه التي منعته من الرؤية واستمر ينظر مطولاً إلى الرسالة لكنه لم يتمكن من قراءة الكلمات فلم يقو على ذلك، وبيد مرتجفة ارتدى نظارته ثانية مكملاً القراءة بصعوبة.

- لا تقل إني تركتك بسهولة أو تخليت عنك فأنت جزء مني ولا يتخلى أحد عن جزء من روحه إلا من كان عاقلاً وأنت تعلم أني لست بعاقل.. أنت كل ما تبقى لي في هذه الحياة، طرت إلى الفضاء من أجلنا ثلاثة، سأحقق حلم والدي وأحقق هدفك وبتحقيق هذا تتحقق أمنياتي، أدركت أن هذا هو مصيري.. أرجو ألا تقلق علي فأنا لست وحدي "سموكي" بجانبي وعلى الرغم من أنه لن يعوض جلسة من جلساتنا إلا انه صديقي الأوحد.. لم أتمكن من قول هذا لك وجهاً لوجه فلم تتملكني الشجاعة لذلك يوماً، أريدك أن تعرف لطالما اعتبرتك أكثر من جد ولم أشعر بفقدان والدي بفضلك.. سأعود قريباً، رجاء كن بانتظاري".

بعدما انتهى من قراءة الرسالة استند بظهره إلى الوسادة بينما قلبه يغوص بين ضلوعه من حسرته وكان بكاؤه يحمل بعضاً من الحزن والفخر في الوقت ذاته وعلى الرغم من استعداده لمثل هذا الموقف إلا أنه لم يعتد على فراق حفيده طويلاً.

أقلع "الوصول 19" وترك وراءه بركاناً من الدخان الكثيف وكان قلب إسحاق يهتز مع اهتزاز الصاروخ ويخفق بسرعة شديدة لم يشهدها من قبل في انتظار لحظة وصوله إلى الفضاء متمسكاً بمقعده المتين مع حزام أمان غليظ يربطه محافظاً على ثباته وفي دقائق وجد نفسه خارج الغلاف الجوي كصوص خرج من بيضته، لم تمر دقائق حتى هدأ الاهتزاز ووجد نفسه يطفو في الفضاء الساكن.. كانت فرحته غامرة ولم يتمالك نفسه فقفز من مقعده متناسياً انعدام الجاذبية وأخذ يطفو بخفة كريشة عصفور.

الفضاء فراغ قاس، صامت دون حركة، والسر لتكون سعيداً ليس بالصعود إلى الفضاء أو البحث عن السعادة، بل في إيجاد الحقيقة عن طريق تجربة كل الأشياء التي تجذبها روحك إليك.. مثلما وجدت ذاتي في الفضاء يمكنك إيجاد ذاتك في الأرض.

دخل عيسى إلى المرأب باحثاً عن جهازه اللاسلكي ليتواصل مع حفيده، وبعد نصف ساعة من البحث وجده مكسواً بالغبار، وبعد مرور ساعات من المحاولات الفاشلة في تشغيله استسلم وغاب تفاؤله عنه.

كان إسحاق يطفو بسعادة في حلمه الذي تحقق أخيراً، وحتى سموكي، الصديق المخلص، كان يحرك زعنفته بمرح وبصعودهما إلى الفضاء بات أول سمكة محظوظة تحلق عالياً، وراح يفكر في لو أنه أحضر معه كتابه المفضل لقراءته ثم اخذ يتحدث مع سمكته قائلا:

- أتعلم يا سموكي القراءة والتفكير والأحلام، كل هذه أشياء جميلة في كل الأماكن حتى في الفضاء.

صمت للحظة وجالت في خاطره كلمات جده العميقة ومن بينها قوله "تذكر جيداً يا بني لا يمكنك تقاسم العلم لأنه لا يستحقه سوى من يسعى إليه" وتذكر حينها يديه الحانيتين وصدره الدافئ الذي كان ومازال ملجأه.

استسلم عيسى لفشله على غير عادته، خارت قوته واصفر وجهه، فمجرد التخيل أنه لن يتمكن من الاطمئنان على فلذة كبده جعلت الدنيا ضيقة في عينيه، جلس برهة يلتقط أنفاسه فأحس بوخزة في صدره وراح يردد في قلبه.

- الجميع يطلب منك وأنا أطلبك يا مولانا كن مع حفيدي ولا تتركه.

أنهى عيسى كلماته وساد الصمت للحظات قبل أن يتلقى إشارة من اللاسلكي، بعد ذلك قفز فرحاً من مقعده وراح يصيح بأعلى صوته منادياً:

- إسحاق! هل تلتقط إشارتي؟ أتسمعني يا بني!

كان إسحاق يحارب نفسه كي لا يفقد توازنه حينما وصل صوت جده إلى أذنيه وراح يجاهد نفسه للوصول إلى قاعدة الصاروخ لالتقاط اللاسلكي، بعد صعوبة بالغة جلس فوق الكرسي وربط نفسه لكيلا يفقد توازنه والتقط اللاسلكي بسعادة غامرة.

- جدي! إني أسمعك.. تحدث أرجوك!

شعر عيسى وكأن روحه قد عادت إليه عند سماعه صوت حفيده فدمعت عيناه فرحاً لذلك وامتلأ قلبه بالبهجة، أصدر نفسا عميقا وراح يقول بحنو بالغ:

- طمئني عن حالك يا إسحاق! هل وصلت بخير؟؟ كيف حالك؟
- فليطمئن قلبك يا جدي لم أكن بخير هكذا في حياتي من قبل تراني أطفو في الفضاء أحقق هدفي وحلمك ووالدي ماذا أريد أكثر من هذا؟

ابتسم الجد فرحاً وشكر الخالق على هذه اللحظة الجبارة لكن بدا أن حظه قليل ففي تلك اللحظة المغمورة بمشاعر الفرح دهمته

وخزة لاذعة في قلبه أشد ألما من التي قبلها وقع إثرها أرضاً وبصوت مبحوح قال:

- اسمعني جيدا يا بني.. المقصورة مبرمجة على الانطلاق والعودة إلى الوطن بشكل آلي لذا لا تقلق نفسك إن نسيت أو أخطأت..

صمت للحظة التقط فيها نفسه وأكمل قائلاً:

- لا أريدك أن تقلق بخصوص شيء.. والآن صف لي ما تراه عيناك يا بني، فأنا متشوق لسماع صوتك.
- آه يا جدي، ليتك معي الآن، السماء قريبة مني لدرجة أشعر فيها بأني قريب إلى الله ولو حدثته الآن بما أريد سيكون صوتي قريباً منه أكثر من قبل.

لم يكمل كلامه حتى قاطعه جده بصوت متعب قائلاً:

- الله قريب منك سواء كنت على الأرض أو في الفضاء، هل نسيت قوله تعالى "وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ."

ابتسم إسحاق ابتسامة دافئة وأكمل متأملاً الفضاء:

- محق في كلامك يا جدي كعادتك.. النجوم المضيئة في كل مكان، سبحان خالقها، على اليمين قليلا توجد مجرة

ذات ألوان غاية في الجمال ولا تكفي الكلمات لوصف جمالها الخلاب.

كان إسحاق يسهب في الوصف دون أن يشعر بجده يقاوم احتضاره، يستنشق أنفاسه المتبقية التي باتت عبئا على قلبه الهرم، نهض بصعوبة بالغة من على الأرض وراح يمشي مترنح الخطوات مسنداً كتفه إلى الحائط كسكير مخمور، ممسكاً اللاسلكي بما تبقى من قوته، أما إسحاق فقد سحره الفضاء بجماله وسرق منه عقله فلم يتمكن من التوقف عن وصف ما يراه.

- أتصدق يا جدي بأن هناك سحباً ملونة شبيهة بغزل البنات ممتزجة بشكل خلاب مع غبار كثيف ذي ألوان زاهية جميلة، من بينها اللون الأزرق السماوي والأخضر الغامق كالعشب المبتل، والبرتقالي الساحر.

قاطعه جده بعدما استلقى فوق سريره بجهد جهيد قائلاً بنبرة متعبة:

- ذاك ما يسمى الغبار الكوني يا بني الذي كان منظره نادراً ما صادفنا فوق سطح المنزل وقد حدثتك عنه مرات قليلة. ما تراه يا قرة عيني هو السديم.

استرجع إسحاق ذكرياته الصيفية الجميلة مع جده حينما اعتادا على النوم فوق سقف البيت، نوم هادئ لا يعكر صفوه أي كابوس

مزعج، وقد كانت سعادته كبيرة، أكبر من أن ينتبه لصوت جده المتعب.

- الغبار أي السديم.. ينتشر بين النجوم ولا أقصد النجوم التي نراها.. أتعلم شيئا يا جدي !

صمت إسحاق قليلا والفرحة تشع من عينيه ثم أضاف بنبرة حماس:

- هل يمكنك أخذ نظرة سريعة من النافذة يا جدي لتصف لي السماء التي تراها عندك!

رد عليه عيسى مقاوماً الكحة القوية التي دهمته قائلا:

- إني أقف أمام النافذة يا إسحاق وكل ما أراه اعتادت عيناي رؤيته.. القمر يبعث بنوره على الأرض فيجعلها مضيئة مع بعض من النجوم اللامعة.

اضطر عيسى أن يكذب على حفيده كذبة بيضاء حيث يتعذر عليه النهوض من مكانه فالألم الذي صاحبه منعه حتى من التنفس..

- بالضبط يا جدي! النجوم التي تراها صغيرة وبعيدة عكس التي تقع عليها عيناي، فهي مجموعات هائلة من النجوم والغازات ألوانها الجذابة ومناظرها الفاتنة تملأ الفضاء، أشكالها مبهرة جذابة، وقد قيل إنها قد تكون نقطة بداية لتكوّن النجوم.. لكن من يرى أشكالها سيقول للوهلة

الأولى إنها بداية لشيء عظيم يا جدي حتى أعظم من النجوم ذاتها!

ذهب الألم عن جسد عيسى وأرخى جفنيه مستسلماً، أما عيناه فقد دمعتا لوعد لطالما تمنى الوفاء به وها قد وفى به وانزاحت عن كتفيه هموم لطالما انتشلها.. لم تكن كلمة الموت محفورة في قاموس مخاوفه بلت كان كالشرف العظيم له، مقابلة خالقه الرحيم ومولاه العظيم هو حلمه الأكبر.. شملت البرودة جسده كله وأسلم روحه إلى بارئها.

سبح إسحاق في الفضاء المضيء بنجومه اللامعة حول النجوم والكواكب، مرتدياً بدلته الفضائية متناسياً الزمان والمكان، طافت روح جده عالياً فخيل إليه أنه رآها تمر بجانبه تلوح له بابتسامة بشوشة، كان جسده أخف من ريشة عصفور ونفسه صافية.. تخيل معي الآن دوائر سوداء غامقة وسط سواد السماء إلا أنها أغمق منه، من يرى شكلها يخيل إليه أنها فجوة زمانية تنقل الأشياء إلى أزمنة وأمكنة مختلفة إلا أنها ليست كذلك، هذه الثقوب السوداء التي تبتلع أي شيء يقترب منها، كضفدع جائع، غريبة هي الأشياء الجميلة التي دوماً ما تكون مؤذية.

لطالما تساءلت بيني وبين نفسي من يكون الله؟

فكرت في العديد من الأجوبة ومنها أن عقولنا التي خلقها الله محدودة حتى لا نعرف من يكون لكن لم يقنعني هذا الجواب فوجدت أن أنسب جواب هو الله أكبر، قد تبدو هذه الكلمة مألوفة للبعض حتى أن البعض لا يفهمها أو فهمه لهذه الكلمة سطحي لكنها كلمة عميقة.. أعمق من أن تُشرح بالكلمات، فالله أكبر من أن يُشرح بالكلمات.

الله في كل شيء